الفصل الأول

لمحة حول مسرح التقلبات السياسية والبشرية وصانعوها في الشرق الأدنى القديم

ظلت منطقة الشرق الأدنى مسرحاً للتطورات التاريخية، كما كانت عليه في العصور السابقة، وكانت منحصرة في تلك البلاد الشاسعة ذات التركيب الجغرافي المتنوع والممتدة بين البحر المتوسط غرباً وحدود جبال إيران شرقاً من جهة، وبين جبال أرمينيا شمالاً والخليج العربي جنوباً من جهة أخرى. إلا أنه لم يعد يتحكم في هذه المنطقة المترامية الأطراف مركز واحد، ذلك لأن مسرح الحوادث لم يعد يوجهه مركز تشرئب إليه أعناق سائر المناطق المحيطة به متلقية منه تلك الإيحاءات النشيطة والإرساليات الحضارية الحيوية كما كان الأمر عليه في عهد الحضارة السومرية - الأكادية. بل أصبحت منطقة الشرق الأدنى مقسمة الآن إلى مناطق كبيرة تختلف باختلاف شعوبها، وذلك كما كانت عليه حال تلك المنطقة في عصور ما قبل التاريخ. أما الصفة المميزة لهذه الشعوب فتكمن بوجودها الدائم في تنافس مستمر مع بعضها البعض من أجل توجيه دفة القيادة. بيد أنه كثيراً ما كان هذا النزاع يؤدي إلى توازن في القوى؛ حيث غالباً ما تعادلت القوى المتنازعة.

وهنا نرى تلك الشعوب الفتية، التي قدر لها أن تصبح قائدة التطور التاريخي للشرق الأدنى عقب سقوط سلالة حمورابي، وقد اصطحبت معها نظاماً اجتماعياً جديداً، يمكن مقارنته بنظام الفروسية والإقطاع في العصور الوسطى في أوروبا. وبعد غزو هذه الشعوب لمناطق الشرق الأدنى، استقر كل منها في موطنه الجديد منفصلاً عن الآخر ليدخل بطبيعة الحال في صراع فكري ومادي حاد مع الحضارة السومرية – الأكادية. لذا غيرت هذه الشعوب معالم وجه الشرق القديم، لتحل محل الوحدة المتجانسة المتراصة مجموعة معينة متفككة من الشعوب على مستوى متشابه من التنظيم الشعبي والسياسي. ولهذا كان لا بد لها أن تتحد تارة أو تتصارع باستمرار مع بعضها البعض تارة أخرى، وكل يأمل في الوصول إلى السيطرة والقيادة لهذه المنطقة من العالم.

يمكن تصنيف الشعوب التي طغت على الشرق القديم وحكمت سكانه سياسياً في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م والنازحة إلى هذه المنطقة من الجنوب الشرقي والشرق والشمال والشمال الغربي، إلى المجموعات التالية:

1- استطاع الكاشيون تثبيت أقدامهم في بلاد بابل أثر قضاء الملك الحثي مورشيلي على آخر ملوك سلالة حمورابي باجتياحه العسكري الخاطف لبلاد ما بين النهرين.

2- أما المناطق الواسعة الممتدة من أرمينيا إلى فلسطين ومن الحدود الغربية لإيران حتى ساحل البحر المتوسط الشرقي، فقد اجتاحتها الشعوب الحورية منذ النصف الأول من الألف الثاني ق.م. لقد كان مركز ثقلهم ينحصر في شمال ما بين النهرين؛ حيث استطاعوا تدريجياً الحدَّ من توسع الساميين الغربيين، الذين سبقوهم إلى استيطان أواسط الفرات وبلاد الشام. وقد بلغ شدة تأثير الحوريين في هذه المنطقة درجة استطاعوا معها فعلاً تطعيم الشعب الآشوري عرقياً والتغلغل حتى جبال إيران. وقد يدفع هذا كله مع عوامل أخرى بالبعض للظن أحياناً أن أحكام الهكسوس غزاة مصر حوالي 1700ق.م إنما ينحدرون إلى حد ما من أصل حوري. ومهما يكن الأمر، فإن الحوريين يبقون كقوة سياسية وشعبية أكبر عظمة حضارية وتوسعية عرفتها الألف الثانية قبل الميلاد، قوة قدر لها أن تمتد من بلاد فارس حتى فلسطين.

3- أما الشعب الثالث فقد جعل من منطقة شرق آسيا الصغرى وطنه الجديد. وقد اعتدنا تسمية هذا الشعب بالحثيين انطلاقاً من تسمية أضفاها هؤلاء بأنفسهم على سكان البلاد الأصليين قبلهم، أي سكان منعطف نهر الهاليس في القسم الشرقي من آسيا الصغرى.

فمن ناحية الصفات البدنية يمكن تصنيف الحثيين في الدرجة الثانية بعد الحوريين، المجاورين لهم شرقاً، بيد أن مواهبهم العسكرية والسياسية كانت تفوق هؤلاء الحوريين، إذ استطاعوا بواسطتها الصمود بكل نجاح أمامهم في شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين ومقارعة السلطة المصرية أيضاً.

تشكلت من هذه الشعوب الثلاثة لأول مرة في الشرق الأدنى - بصورة غير مباشرة - معالم أسرة من الشعوب ذات أهمية عالمية في التاريخ، تشابه أهمية أسرة الشعوب السامية في الصحراء الشامية، ألا وهي أسرة العنصر الهندي الغربي.

ولما كان من المتعذر فهم العلاقات المتشابكة وغير الواضحة تماماً إلا من خلال الدراسات التفصيلية لكل من هذه العناصر البشرية التي استطاعت منذ منتصف القرن السادس عشر ق.م قيادة وتوجيه سياسة الشرق الأدنى، لذلك يترتب على من يريد دراسة تحليلية لتاريخ الشرق الأدنى في الحقبة الزمنية ما بين 1500 و 1200ق.م، أن يراقب ويتفحص تشعب الأمور في مجاريها الزمنية المتعرجة العامة والمعاصرة. كما يتوجب على المرء إيجاد السبل لصبها في قالب واحد، بحيث تدور حول تمركز دول الشعوب الثلاثة مكان تلك الحضارة البابلية التي كانت تحتل مركز الصدارة. ومن ناحية أخرى لم تشكل هذه الشعوب في الأصل

مجموعات بشرية متكاملة، بل كانت وحدات نشأت تدريجياً من اتحاد فئات بشرية متباينة.

ولقد استمرت إلى جانب هؤلاء من وراء الستار الطاقات الشعبية والسياسية لسكان البلاد الأصليين.

إن القسم الجنوبي من بلاد بابل الواقع على الخليج العربي والمسمى ببلاد البحر، أرض سومر الحقيقية، كان قد استقل تحت حكم ملوكه المحليين في عهد خلفاء حمورابي الضعفاء. واستطاع هذا الجزء لوقت ما أن يضم قسماً ملحوظاً من أرض بابل إليه. واستمرت بلاد البحر بالحكم في الحقبة الأولى للسيطرة الكاشية تحت قيادة حكام أطلقوا على أنفسهم ألقاباً سومرية قديمة[1].

وهكذا، عندما انتصف الألف الثاني ق.م (نحو 1450)، كانت الأوضاع الدولية قد تغيرت تماماً، وتبدل مصور الشرق الأدنى القديم بصورة كلية. أما القوى الدولية الأساسية بعد ذلك التغيير فهي: إمبراطورية ميتاني (الحوريون) ومملكة بابل الكاشية، والإمبراطورية الحثية، والإمبراطورية المصرية. وهكذا استطاعت تلك الشعوب التي كانت تعيش في السابق في مواقع ومناطق متطرفة على هامش الحياة الدولية أن تنتقل إلى واجهة المسرح الدولي للقيام بأدوار أساسية طوال ثلاثة قرون.

كانت تلك هي الدول الكبرى التي توزعت النفوذ في المنطقة، وقامت فيما بينها علاقات متشابكة، تفاوتت ما بين النزاع والعلاقات الدبلوماسية والتجارية. ولأول مرة في التاريخ يحدث تغير نوعي في العلاقات الدولية بنشوء احتكاك مباشر بين القوى الدولية بعد توازن استمر أمداً طويلاً بوجود فراغ كبير كان يفصل في السابق بين الممالك والدول. أما التوازن الجديد فقد نشأ عن تزاحم هذه القوى واحتكاكها وتصارعها، ثم اقتسام النفوذ في المناطق الاستراتيجية للمحافظة على أمن كل دولة من الدول، ولحماية المصالح الاقتصادية والتجارية لكل منها[2].

وفي وسع الباحثيين أن يرجعوا إلى الوثائق الوفيرة عن هذه المرحلة من التاريخ، والتي تتضمن مجموعات وثائق المحفوظات في القصور الملكية المكتوبة باللغة البابلية والخط المسماري على ألواح الطين. وقد وجد من هذه النصوص في موقع تل العمارنة (أخيت آتون) في صعيد مصر. وهناك الوثائق الاقتصادية والسياسية المكتشفة في أوغاريت، وكذلك الوثائق الدبلوماسية والحوليات التي عثر عليها في الديوان الحثي في حاتوشا (بوغازكوي) العاصمة الحثية وسط

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير. وزارة الثقافة، دمشق 1981، ص 171-177.

2- د. محمد حرب فرزات و د. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، ط 2، دار طلاس، دمشق، 1994، ص 159-160.

الأناضول، وفي أشور وبابل. أما الثغرة الكبيرة التي تحول دون رسم صورة كاملة للوضع الدولي في المنطقة في تلك الفترة، فسببها عدم العثور على موقع العاصمة الحورية (وأشوكاني) الذي لا يزال غير معروف حتى الآن.

وبانتظار هذا الكشف الهام، فإن الوثائق المتوافرة حالياً بين أيدي الباحثين كافية للتعرف على التطورات السياسية والدولية في تلك المرحلة من التاريخ.

وكان انشغال مصر في أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة بظروفها الداخلية آنذاك فرصة أتاحت للإمبراطورية الحثية التحرك في المناطق السورية بصورة مثيرة للقلق، وقادت مصر من جديد إلى التصدي للحثيين بقيادة حور محب أولاً ثم بقيادة فراعنة الأسرة التاسعة عشرة سيتي الأول ثم رعمسيس الثاني لهذا التحرك الحثي.

كانت تلك هي الدول الكبرى في المنطقة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، لكن كانت توجد أيضاً دول عديدة أخرى في سورية وبلاد الرافدين تابعة لهذه الدولة الكبرى أو تلك. ولم تكن الحدود السياسية ثابتة على حال واحدة خلال ذلك العصر، فقد كانت تتغير ظروف التوازن الدولي، ويتغير رسم الحدود تبعاً لفعاليات الدول والعلاقات القائمة فيما بينها.

وإذا كان من الصعب التعرف على الحدود السياسية للدول بشكل صحيح، فإنه ليس من السهل تحديد الحدود العرقية واللغوية بدقة في خارطة المنطقة. وإننا إذا نظرنا إلى أحوال السكان من الزاوية الاجتماعية – الثقافية، فإننا نجد معظم السكان في الريف من الفلاحين وهم مستقرون أو أشباه البدو، في مرحلة وسط بين البداوة والحضارة. أما في المدن فنجد التجار والصناع موزعين على أحياء المدينة وأسواقها بحسب صنائعهم. ويتكلم معظم هؤلاء السكان لهجات سامية غربية كنعانية وآرامية في غرب الفرات وأكادية بلهجة آشورية أو بابلية في آشور وبابل، ونجد في المناطق الانتقالية قبائل أمورية عديدة، تختلف لهجاتها قليلاً أو كثيراً عن الأكادية أو الكنعانية. وهناك تجمعات حورية مبعثرة في مناطق كثيرة، ولكن معظم الحوريين ينتشرون على شريط يمتد من زاغروس إلى الأمانوس. وينبغي مع ذلك أن يذكر أن السكان كانوا مختلطين ومتداخلين بصورة عامة، ولم يكن هناك فصل بين المجتمعات على أساس لغوي. فبينما كان يكثر عدد الحوريين في وادي الخابور، كان أكثر السكان من الناطقين بلهجات تنتمي إلى العائلة اللغوية السامية (العربيات القديمة). وبينما كنا نجد عناصر حورية في ألالاخ في سهل العمق في وادي العاصي الأدنى، فإن العناصر الأمورية كانت تنتشر في حلب وفي وادي الفرات وبخاصة في منطقة ماري وبلاد بابل.

وقد تمكنت العناصر الحورية في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة وشمال سورية أن تشكل دولة كبيرة هامة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م هي مملكة ميتاني بعد أن تضاءلت قوة مملكة بابل. وكانت هذه الدولة تتألف من

مجموعة كبيرة من الدويلات والإمارات ترتبط برأس الدولة وهو ملك ميتاني ارتباطاً شخصياً واهياً أحياناً وشبيهاً بالارتباط الإقطاعي. وكان على رأس الدولة والمجتمع أرستقراطية آرية بالإضافة إلى العناصر الحورية القديمة. وقد كونت هذه الدولة، مع مملكة آشور التي كانت تابعة لها، أكبر قوة سياسية في غربي آسيا خلال القرن الخامس عشر، امتدت من جبال زاغروس شرقاً إلى الأمانوس غرباً، ومن كيليكية شمالاً إلى جبال لبنان جنوباً[1].

ولكن في الربع الأخير من هذا القرن دخل عامل جديد في معترك الصراع في سورية الشمالية، عندما أخذت الإمبراطورية الحثية في مدِّ نفوذها نحو الجنوب، بعد أن تنامت قوتها، ما أدى إلى الاصطدام المباشر مع مملكة ميتاني، وإلى إيجاد الظرف المناسب لتوطيد التحالف الميتاني - المصري. إنه لمن المستحيل إعطاء صورة حية ذات تفاصيل وافية عن الشعوب المختلفة لتاريخ الشرق الأدنى خلال الحقبة الواقعة ما بين 1500 و 1200ق.م، وأن نتعقب في الوقت نفسه تشابك الحوادث الدولية والحقائق جاعلين منها وحدة تامة، ذلك لأننا نرى التوازي الزمني للروايات التاريخية يتحول إلى ترادف فيها. وهكذا لم يبق لنا - مع الإشارة إلى الخطورة في تكرار الحوادث التاريخية - سوى مخرج واحد، وهو معالجة تاريخ كل دولة أو شعب قيادي على حدة، بعد أن أشرنا إلى الخطوط الرئيسة لمجرى التطور العام للتاريخ السياسي.

1- المرجع السابق، ص 160-161.